قصة قصيرة

الساعة الالكترونية[1]

مصطفى زيات

... وفي نهاية السقف الخشبي للممر الرئيسي للخيمة نصبت ـ منذ زمن ليس ببعيد ـ ساعة الكترونية مستطيلة الشكل طولها ستة أمتار ـ يقارب عرض الممر ـ وعرضها أربعة أمتار، وسطحها كله مغطى بآلاف المصابيح الكهربائية الصغيرة المختلفة الألوان. وتنقسم الساعة إلى قسمين، سفلي وعلوي، يفصل بينهما خط مستقيم من الضوء الأحمر.

والقسم السفلي ـ وهو ضيق لا يتجاوز عرضه المتر الواحد ـ مخصص لحساب الزمن الذي يتحدد بواسطة ستة عشر رقمًا يصنعها ضوء أصفر على أرضية مضيئة بيضاء، والأرقام ـ من اليسار إلى اليمين ـ الأربعة الأولى للأعوام، ثم اثنان للشهور، فاثنان للأيام، فاثنان للساعات، فاثنان للدقائق، فاثنان للثواني، وأخيراً اثنان لأعشار وأعشار أعشار الثانية.

أما القسم العلوي ـ وهو أعرض بكثير من القسم السفلي إذ يتجاوز عرضه ثلاثة أمتار ـ ترتسم عليه الصور والكلمات التي يصنعها كبير المهندسين بالأضواء المختلفة الألوان، وهو في غرفته الصغيرة في الجهة المقابلة من الخيمة.

والساعة ـ كما قيل ـ أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا المعاصرة دقة وتعقيداً، فهي ـ لدقتها ـ تستطيع حساب أجزاء أعشار الثانية. وقد اضطر المسؤولون في الخيمة ـ لشدة تعقيد الساعة ـ لإرسال بعثة من أربعة مهندسين خارج الخيمة للتدرب على كيفية تشغيلها وصيانتها، وأمضوا في ذلك ثلاثة شهور.

يوم تدشين الساعة كان من أيام الخيمة المشهودة، فقد امتلأت مدرجات الخيمة ـ المزدانة بالأعلام والصور وآلاف الأضواء الملونة ـ وحلبتها وممراتها ـ منذ الصباح ـ بآلاف المتفرجين الذين جاءوا يشاهدون الاحتفال الذي شاركت فيه ثلاث فرق موسيقية ـ عدا الفرقة الرسمية للخيمة ـ يومها رقص الجميع، وغنى الجميع، حتى حراس الخيمة شاركوا المتفرجين في الرقص والغناء.

وحين وصل ـ قبيل الظهر ـ كبار الشخصيات يرافقهم أعوانهم ومساعدوهم ومجموعة كبيرة من الصحفيين والمصورين مع آلات تصويرهم وتسجيلهم المختلفة، أخليت الحلبة والممرات وتجمع المتفرجون في المدرجات، وأخذ الحراس أماكنهم، وسارت لجنة الاستقبال، على رأسها كبير المهندسين نحو المدخل الرئيسي للخيمة. وعلى أنغام الموسيقى دخل الساحر العظيم، فهو راعي الاحتفال، وعلى يمينه رئيس الحرس بلباسه الرسمي، وعلى يساره البهلوان، وخلف الثلاثة وإلى جانبيهم لفيف من كبار الشخصيات بثيابهم الأنيقة وابتساماتهم المشرقة، ومع تصفيق الجميع ـ من متفرجين وحراس وشخصيات وضيوف ـ وهتافاتهم قصَّ الساحر الشريط الأحمر، وأضيئت الساعة للمرة الأولى، وظهر في قسمها الأعلى، وبين زهرتين حمراوين من الأضواء، وعلى أرضية مضيئة بيضاء كالحليب، كلمتا «أهلاً وسهلاً» بضوء لـمَّاع أخضر، وبثلاث لغات.

وفي القسم السفلي أضيئت الأرقام الستة عشر بلون أصفر، وعلى أرضية بيضاء، كالحليب أيضاً، وكان الرقمان الأخيران، في أقصى اليمين، يتغيران بسرعة تعجز العين عن ملاحقتهما.

توجه الساحر ـ بعد أن اطمأن على عمل الساعة ـ نحو طاولة صغيرة وسط الحلبة، كما توجه كبار المدعوين والضيوف نحو مقاعدهم، وهدير التصفيق والهتاف ما زال مستمراً منذ قُصَّ الشريط وأضاءت الساعة.

بدأ الساحر ـ بعد أن توقف المتفرجون والحراس عن التصفيق والهتاف الذي لم ينقطع إلا بإشارات متكررة من رئيس الحرس ـ كلمته بتهنئة نفسه على الشرف العظيم الذي ناله برعاية هذا الاحتفال، ثم أشاد بهذا اليوم وبصانعيه، وأكد بحزم أنه خطوة كبيرة على طريق التقدم والعلم والحضارة، كما أشار إلى

(١) فصل من رواية بعنوان «الاستعراض العظيم».

الجهود الجبارة والأموال الكثيرة التي بذلت وبسخاء، لتحقيق هذا الكسب العظيم لهذه الخيمة العظيمة. وقال كلاماً كثيراً آخر.

ولم ينس في نهاية كلمته أن يرحب باسم كبير المهرجين، وباسم جميع المتفرجين، وباسمه الشخصي، بضيوف الخيمة من أبناء الخيم الصديقة، وقد قوطعت كلمته مراراً بعواصف من التصفيق الحاد والهتاف الصاخب. بعد ذلك ألقى أحد شعراء الخيمة، وهو في الوقت نفسه أحد مهرجيها، قصيدة طويلة نعى فيها زمن التخلف الذي مضى بلا رجعة، وأشاد بعصر النور والتجديد والازدهار الذي أشرق اليوم.

شكر المسؤولين وبارك جهودهم، ودعا لهم بطول العمر والبقاء، وأكد استعداده لبذل كل عمره وكل أبنائه في سبيل مرضاتهم مردداً:

«عمري فداكم، فديتكم عمري، إبني فداكم، فديتكم إبني» أكثر من عشرين مرة.

ثم هنَّأ المتفرجين برؤيتهم لهذا اليوم الذي يساوي عمراً كما هنأهم بوجود صانعي هذا اليوم في خيمتهم، واستغرب ــ في نهاية قصيدته ــ كيف يصمت البعض في مثل هذا اليوم الذي أنطق الحجر ــ ملمحاً بذلك إلى شاعر الخيمة الصامت منذ زمن بعيد ــ ووعد المتفرجين ــ بعدما رأى من تصفيقهم وهتافهم وصفيرهم ــ بقصيدة، بل بقصائد كثيرة أخرى، أجمل وأحلى، في الأيام المقبلة، ويوم الاستعراض العظيم.

ثم ألقى معاون رئيس الحرس كلمة، أهم ما جاء فيها أنه يشعر اليوم بأن الخيمة أصبحت أقوى من أي يوم مضى. وبعده ألقى أحد المتفرجين قصيدة زجلية مليئة بالدعوات والشكر والتهنئة.

ثم بدأ الغناء والرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة، بعد قليل توجه الساحر وكبار المدعوين والضيوف يتقدمهم كبير المهندسين إلى ممر ضيق ينتهي إلى غرفة صغيرة لتشغيل الساعة، بينما تابع المتفرجون والحراس رقصهم وغناءهم في حلبة الخيمة وممراتها.

تحلق المدعوون حول الطاولة الكبيرة المليئة بمئات الأزرار المرقمة والملونة والمضيئة، وعشرات المفاتيح. قدم معاون كبير المهندسين للزوار قطع الحلوى وعلب الشراب المستورد المثلج، بينما كان كبير المهندسين يسحب كرسيه الدوار المتحرك إلى زاوية الغرفة ويعود إلى مكانه في منتصف طرف الطاولة أمام الشاشة التلفزيونية التي وضعت في منتصف الطرف المقابل، والتي يظهر عليها ما يظهر على لوحة الساعة الكبيرة.

راح كبير المهندسين يشرح ــ باضطراب في بادىء الأمر ــ كيفية عمل أقسام الساعة، مبتدئاً بالقسم السفلي منها، موضحاً شرحه بالتجارب العملية.

ضغط زراً معيناً فتحولت الأرقام الستة عشر ــ في الشاشة التلفزيونية على الطاولة وفي الساعة الكبيرة في الخيمة ــ إلى أصفار صفراء. ضغط زراً آخر فزالت الأصفار، وبقيت أرضية القسم السفلي مضيئة بيضاء، سحب مفتاحاً إلى الأمام فانطفأ القسم السفلي نهائياً، كل ذلك والقسم العلوي باقٍ على حاله. دفع المفتاح للخلف، وضغط الزرين بالتتالي، فعادت الأرقام لعملها المعتاد مرة ثانية.

نبَّه كبير المهندسين زواره إلى أن القسم السفلي من الساعة يعمل ــ أيضاً ــ كآلة حاسبة الكترونية، ثم أجرى بعض عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، وكانت النتائج تظهر صحيحة على الشاشة التلفزيونية فتمتلىء وجوه المدعوين بالفرح والغبطة وتظهر على الساعة فتمتلىء الخيمة بصيحات العجب والاندهاش الصادرة عن المتفرجين ــ الذين كفوا عن الرقص والغناء ــ وراحوا يراقبون بعيون محدقة وأفواه فاغرة ورؤوس معلقة ووجوه هاشة باشة، كوجوه أطفال يتفحصون ثيابهم الجديدة وألعابهم ليلة العيد، يشوب ذلك كله شيء من الخشوع والرهبة الصوفية.

بعد ذلك بدأ كبير المهندسين ــ وبثقة أكبر ــ شرح عمل الأزرار والمفاتيح الخاصة بالقسم العلوي من الساعة، وأتبع شرحه بتجارب عملية فضغط زراً معيناً فغابت الكلمتان «أهلاً وسهلاً» والزهرتان الحمراوان من الشاشة والساعة وظهرت لوحة القسم العلوي ــ في الشاشة والساعة ــ بيضاء ناصعة، ثم سحب مفتاحاً إلى الأمام فانطفأ القسم العلوي نهائياً.

تابع كبير المهندسين ــ بعد أن نظر في وجوه زواره ــ فدفع مفتاحاً إلى الخلف، فأضاء القسم العلوي باللون الأبيض، ثم ضغط ــ بالتتالي ــ وبسرعة ــ وكمن يضرب على الآلة الكاتبة ــ مجموعة أزرار، وتوقف لحظة قبل ضغط الزر الأخير، فظهرت على القسم العلوي كلمتا «يا خيمة الأمل» صنعتها الأضواء الزرقاء الفاهية، ضمن إطار عريض من الأزهار المختلفة الألوان.

نظر الزوار إلى الشاشة ثم إلى الساعة ــ من خلال جدار الغرفة الزجاجي ــ وتهامسوا:

ــ يا للروعة!

ــ يا للدقة!

ــ يا للتقدم!

وتصايح المتفرجون:

ــ إنه زمن العجائب!

ــ كالحلم!

ــ لا يصدق!

ــ غير معقول!

ــ سحر!

ــ بل أقوى من كل سحر..

وهمس أحد المتفرجين في أذن صاحبه ـ متلفتاً:

ـ ترى هل يستطيع ساحرنا العظيم مثل هذا؟

فأجابه صاحبه ـ مستنكراً بهز رأسه هزة خفيفة:

ـ هِهْ، هِهْ.

الجميع ـ مدعوون ومتفرجون وحراس ـ تغمرهم السعادة والفرح، ولكن فرح الجميع وسعادتهم لا يساويان ولو جزءاً بسيطاً مما يشعر به كبير المهندسين، فهو يشعر بأن آلته الحاسبة الالكترونية بأرقامها الستة عشر لا تستطيع حساب أبسط الأجزاء مما يشعر به الآن. ضغط زراً فعاد القسم العلوي أبيض ناصعاً، ثم ضغط ـ بالتتالي ـ وبخفة، كعازف ماهر، مجموعة أزرار فظهرت على اللوحة صورة كبير المهرجين صنعتها الأضواء الوردية على أرضية خضراء مزركشة بالورود والعيون والأزهار الصغيرة الملونة.

صفق الزوار داخل الغرفة بهدوء، بينما ضجت الخيمة ـ بعد هدوء نسبي ـ تصفيقاً وهتافاً لا يوصفان. ضرب كبير المهندسين جبينه برؤوس أصابعه، بعصبية، ضربة خفيفة، وخاطب الساحر:

ـ كدت أنسى، للساعة ذاكرة!

حرك كبير المهندسين مفتاحاً باتجاه اليمين، ثم ضغط زراً مرقمًا بالعدد واحد فعادت اللوحة الأولى «يا خيمة الأمل»، ثم ضغط زراً مرقمًا بالعدد اثنين فظهرت اللوحة الثانية «صورة كبير المهرجين». تابع كبير المهندسين ـ بعد فترة صمت:

ـ كما أنها تعمل بصورة آلية ذاتية.

ثم حرك أحد المفاتيح باتجاه اليسار، وضغط الزرين المرقمين السابقين، فبدأت الساعة تعمل آلياً مظهرة ـ بالتناوب ـ «يا خيمة الأمل»، «صورة كبير المهرجين»، «يا خيمة الأمل»، «صورة كبير المهرجين»، «يا خيمة الأمل»، وهكذا...

تابع كبير المهندسين ـ والساعة ما زالت تعمل آلياً ـ مخاطباً الساحر:

ـ وهي تحوي آلة تسجيل ضخمة.

وضغط زراً، فصدحت الموسيقى، خافتة في الغرفة، صاخبة في الخيمة، ترافق اللوحتين المتناوبتين في الظهور في القسم العلوي من الشاشة والساعة.

تصفيق هادىء في الغرفة، وحاد، مع هتاف صاخب في الخيمة.

كاد المتفرجون يعاودون الرقص، غير أن كبير المهندسين أوقف ذلك حين ضغط زراً فعادت اللوحة بيضاء كالحليب.

وتتابع الضغط على الأزرار، وتتابعت اللوحات بشكل أسرع قليلاً. كانت اللوحة الثالثة «هلا يازمن النعيم هلا»، وقد كتبت الكلمتان الأولى والأخيرة بخط ولون يخالفان خط ولون الكلمتين في الوسط، والكلمات الأربع ضمن إطار من الأشكال الهندسية البديعة.

أما اللوحة الرابعة فكانت صورة الساحر بلباسه التقليدي الأسود وبقبعته وعصاه السوداوين.

واللوحة الخامسة «خيمتنا أقوى الخيمات» في إطار من السيوف والدروع والأقواس والسهام.

تبعتها اللوحة السادسة وهي صورة رئيس الحرس بلباسه الرسمي، ثم «خيمتنا لا تضاهيها خيمة» ثم «صورة البهلوان».

ثم تتابعت اللوحات ـ وبشكل أسرع فأسرع.

«كلمات»، «صورة دب على عينيه نظارتان كبيرتان يقرأ في مجلد ضخم»، «كلمات»، «صورة فيل يقف على قدم واحدة»، «كلمات»، «صورة قرد»... كلمات وصور لا تنتهي...

ذهب كبار المدعوين والضيوف لمأدبة الغداء، بينما بقي المتفرجون والحراس في الخيمة يتابعون الرقص والغناء، حتى ظهرت على اللوحة ـ بعد منتصف الليل ـ وفي إطار من الأيدي الملوحة، كلمتا «إلى اللقاء».

كان يوماً لا ينسى، راح المتفرجون يؤرخون به أحداثهم الهامة من زواج وافتراق وولادة متعسرة ومرض وموت وسفر بلا عودة... فهذا تزوج قبل تشغيل الساعة بأسبوع، وتلك فقدت زوجها ـ وهو في ديار الغربة ـ بعد تشغيلها بأسبوع، وهذه وضعت ابنها الكبير ليلة تشغيل الساعة، وتلك مات ابنها البكر ـ متسممًا ـ صبيحة تشغيلها وهذه مات أخوها ـ بحادث مؤسف غامض مفاجىء ـ قبل تشغيل الساعة بيومين، وذاك كسرت ساقه ـ أثناء العمل ـ بعد تشغيلها بيومين.

وكثيرون سرقت منازلهم يوم الاحتفال، وأثناء انشغالهم بالرقص والغناء، وآخرون دخلوا السجن ـ قبل الاحتفال وأثناءه وبعده ـ ولم يخرجوا منه حتى الآن.

ولكن المتفرجين سرعان ما استبدلوا في تأريخهم بيوم تدشين الساعة يوم عطلها الأول، الذي أصاب قسمها الأعلى، فأصبحت الكلمات والأشكال تظهر على اللوحة مغلوطة مشوهة.

في الحقيقة كان العطل ـ بادىء الأمر ـ بسيطاً، فقد اكتشف كبير المهندسين أثناء أحد عروض الاستعراض الكبير التجريبية، أن الساعة تبدل حرف الميم بـاءً، حين ظهرت «يا خيمة الأمل» «يا خيبة الأبل» فجرب لوحة أخرى فظهرت «خيبتنا أقوى الخيبات» ثم «خيبتنا لا تضاهيها خيبة» و «هلا يا زمن النعيب هلا»، وهكذا بقية اللوحات... كما ضاع انتظام الأشكال، فبدت أوراق الأشجار مقطعة مفصولة عن الأغصان، والأغصان متكسرة مفصولة عن الساق، والساق منحنية متموجة غير ثابتة، كما انقلب الأخضر أسود، والأبيض بنياً، والوردي

رمادياً. أما رسوم الحيوانات والأشخاص فصارت تظهر بعيون محدقة وأفواه كبيرة وأنياب طويلة، وبألوان وأوضاع مرعبة.

كان يوماً مريعاً أقلق المشرفين على الاستعراض وأحزنهم، وكان كبير المهندسين أكثرهم شقاء وحزناً وخوفاً، بل إن شقاءه وحزنه وخوفه فاقت سعادته يوم تشغيل الساعة. ما العمل؟؟ سؤال طرحه الجميع ــ والاستعراض الكبير قريب ــ حاول كبير المهندسين ومعاونوه إصلاح العطل وبذلوا في ذلك أياماً عديدة وجهوداً مضنية، ولكنهم أخفقوا في ذلك. استبدل بكبير المهندسين مهندس آخر، واستبدل الآخر بآخر، ثم بآخر، وفشل الجميع، فكان لا بد من استدعاء الخبير الأجنبي الذي تمكن ــ مع طاقمه ــ وبأدواته الحديثة جداً من إصلاحها، فعادت الفرحة إلى القلوب والبسمة إلى الوجوه.

راح المتفرجون ــ بعد أن اطمأنوا على سلامة الساعة ــ يتساءلون عن أسباب العطل.

بعضهم يؤكد أن الخبير وجد صرصاراً ميتاً بين الأسلاك. وبعضهم نفى ــ مستغرباً ــ أن يكون صرصاراً، بل هو فأر كبير أو جرذ قرض أحد الأسلاك فسبب العطل ومات بالصدمة الكهربائية ــ (ذكرني ذلك بالاعدام بواسطة الكرسي الكهربائي) ــ ويبررون اعتقادهم هذا بالحملة الكبيرة التي نظمت للقضاء على الحشرات والقوارض في الخيمة.

وقال البعض ــ من ذوي العلم والثقافة ــ إن انخفاض وارتفاع شدة التيار الكهربائي المتكرر هو سبب العطل، فالساعة الكترونية دقيقة حساسة وهي بحاجة لتيار كهربائي منتظم بشكل دقيق، وقد تم فعلاً إحضار المنظم الخاص، الذي أوصى به الخبير الأجنبي، بطائرة خاصة.

وهناك من يرى أن عطل الساعة كان نتيجة عملية تخريب ويتهامسون حول حملات التفتيش الأخيرة واعتقال بعض المشبوهين. وقيل أيضاً: إن وراء العطل رجالاً من الخيم الأخرى التي لا يروقها أن ترى خيمتنا متقدمة مزدهرة.

وقيل: إن أحد المهندسين ــ من معاوني كبير المهندسين ــ هو الذي عطل الساعة لأنه كان يطمع في منصب كبير المهندسين.

قيل: رجال رئيس الحرس!

وقيل: رجال الساحر!

وقيل: رجال البهلوان!

ولكن أغرب ما قيل هو أن كبير المهندسين هو الذي عطل الساعة بنفسه، ودافعه في ذلك رغبته في قضاء فترة من الوقت خارج الخيمة للقيام بدورة تدريبية على إصلاحها، لا سيما أنه وعد زوجته ــ كما أكدت صاحباتها ــ برحلة خارج الخيمة للسياحة والتبضع.

على كل حال فجميع هذه الأقوال، وغيرها كثير، تلاشت بالتدريج بعد عودة الساعة للعمل.

لكن الفرحة بإصلاح الساعة لم تدم طويلاً، فبعد أيام فقط تعطل القسم السفلي فبدأت الأرقام تعد عداً عكسياً تنازلياً، فراحت الثواني والدقائق والساعات تعود للوراء، وبسرعات معكوسة أيضاً، إذ أصبحت الدقائق أسرع من الثواني، والساعات أسرع من الدقائق، والأيام أسرع من الساعات، والشهور أسرع من الأيام، والسنوات أسرع من الشهور. ففي دقيقة واحدة كانت ساعة الخيمة ترجع إلى الوراء سنوات.

والحقيقة أن المتفرجين لم يستاؤوا لهذا العطل كما استاؤوا للعطل الأول.

وبعد أيام تعطل القسم العلوي مرة ثانية أيضاً، وأظلمت الساعة بقسميها.

راحت أقاويل المتفرجين تنتشر مضيفة إلى ما قيل في المرة السابقة قولهم: إن الخبير الأجنبي الذي أصلحها في المرة السابقة تعمد جعل بعض أسلاكها ضعيفة، وقالوا: إن الرطوبة أدت إلى صدأ الأسلاك ثم انكسارها، وقالوا: إن الحرارة أدت إلى انصهار الأسلاك وانقطاعها. قالوا وقالوا وقالوا...

فقد المتفرجون اهتمامهم بهذه الساعة، وبأعمالها وبأعطالها، كما فقدوا الأمل بإمكان استمرار عملها بشكل جيد، وأصبحت ــ بعد أن كانت يوماً للتأريخ ــ مثالاً للخطأ والخلل والفوضى في الزمان والمكان والقول والعمل، وصارت مجالاً للسخرية ــ حتى في الخيم الأخرى ــ إذ صار تشبيه إنسان ما ــ في قوله أو عمله ــ بساعة الخيمة من أكبر الإهانات.

قيل إنهم قرروا استبدالها بساعة جديدة، وإنهم شكلوا لجاناً من المسؤولين والإداريين لذلك.

وقيل إنهم قرروا إصلاحها من جديد، وإنهم شكلوا لجاناً من الاختصاصيين والفنيين لتنفيذ ذلك.

ولكن، ها هو الاستعراض العظيم، وكلا القرارين لم ينفذ، والخيمة ــ لا تزال ــ تعيش بدون ساعة.

أما غرفة كبير المهندسين فتحولت ــ مع الأيام ــ وبشكل شبه رسمي ــ لأن أكثر مستخدميها من حراس الخيمة ــ إلى مرحاض عام.

حلب ــ مصطفى الزيات